الفلسفة... وقضايا العصر*

إمام عبدالفتاح إمام

أستاذ غير متفرغ، كلية الآداب، جامعة عين شمس، مصر

الملخص

تنطلق هذه الدراسة من رؤية تتأسس على فكرة هيجل من أن الفلسفة هي عصرها ملخصاً في الفكر؛ فالفلسفة تنهض بدراسة الأفكار الأساسية التي تقوم عليها الحياة، والقضايا والطروحات الفلسفية متجددة بتجدد الحياة، ومن هنا فإن الفلسفة المعاصرة تعالج قضايا جديدة ومستحدثة مثل: المساواة، وإزهاق الحياة، والعنصرية، والخصوصية، والأدب المكشوف، والعدالة الاجتماعية، وغيرها من الأفكار المتعلقة بالعصر.

وفي ضوء هذه الرؤية فإن موضوعات الفلسفة وأفكارها متجددة بحسب العصر ومنطلقاته وتصوراته الفكرية؛ فلا يجوز القول إن الفلسفة تقف عند القضايا القديمة التي تناولتها الفلسفة اليونانية وفلسفة العصر الوسيط.

المقدمة

تستهدف هذه الدراسة بيان صدق الفكرة الهيجلية التي تقول: "إن كلاً منا هو ابن عصره وربيب زمانه.. وإن الفلسفة هي **عصرها** ملخصاً في الفكر[1]. فالفلسفة لا تبني عالماً من الخيال ولا تنسج أوهاماً بعيدة عن واقع الحياة العملية، لكنها هي هذه الحياة نفسها معبراً عنها في صورة نظرية، أو قل إنها دراسة للأفكار الأساسية التي ترتكز عليها هذه الحياة؛ وهكذا تكشف هذه العبارة عن خطل الرأي الذي يقول: "إنَّ قضايا الفلسفة ثابتة لا تتغير، وهم يضربون المثل على وجه التحديد بعلم الأخلاق Ethics الذي لم تتغير قضاياه - كما يزعمون - منذ سقراط مؤسس هذا العلم - في القرن الرابع قبل الميلاد حتى الآن. فإذا كان سقراط قد بحث عن معنى الشجاعة والعفة والحكمة والعدالة والفضيلة.. إلخ باعتبارها من صميم الأخلاق، أو الموضوعات الأساسية في هذا العلم، فإننا لانزال نبحث في هذه الموضوعات أو نقول ما كان يقوله سقراط أيضاً. وهكذا تراوح الفلسفة مكانها دون أي تقدم يذكر!.

وإذا صحَّ ما يقوله هيجل من أن الفلسفة هي "عصرها ملخصاً في الفكر" فإن معنى ذلك أننا لابد أن نلتقي في الفلسفة المعاصرة بقضايا جديدة لم تكن تخطر لسقراط على بال حتى في علم الأخلاق نفسه، ولو أننا ألقينا نظرة سريعة على مؤلفات فلاسفة الأخلاق في الفلسفة المعاصرة لوجدناها تدرس موضوعات تضرب بجذورها في **فكر العصر**. خذ مثلاً كتاب "الأخلاق العلمية" للفيلسوف الأسترالي الأصل الأمريكي الجنسية "بيترسنجر" P.Singer (1946)[2] تجده يتحدث عن موضوعات لم يكن سقراط يعرف عنها شيئاً على الإطلاق، مثل:

1 - المساواة ومضامينها.

2 - المساواة من أجل الحيوانات.

3 - ما الخطأ في عملية القتل؟

4 - إزهاق الحياة: الحيوانات.

5 - إزهاق الحياة: الإجهاض.

6 - إزهاق الحياة: القتل الرحيم.

7 - الغنى والفقر.

وتجد في كتاب: "المشكلات الأخلاقية في يومنا الراهن"[3]، الذي طبع ثماني مرات موضوعات مثل:

الإجهاض، العنصرية[4]، التفرقة بين الجنسين، الخصوصية، عقوبة الإعدام، الأساس الأخلاقي للمذهب النباتي، حقوق الحيوان والأجيال التي لم تولد بعد، الأدب المكشوف، العدالة الاجتماعية، القيم وفلسفة البيئة، تحرير الحيوان، الاستخدام الأخلاقي وغير الأخلاقي للحيوان.. إلخ.

والسؤال الذي يجدر بنا طرحه الآن هو: هل كان سقراط أو أفلاطون أو أرسطو - يعرفون موضوعاً واحداً من هذه الموضوعات التي أصبحت الشغل الشاغل لفلاسفة الأخلاق في يومنا الراهن؟!. خذ كتاباً آخر عنوانه "القيم والخطة العامة" بقلم كلوديا ميلز[5] تجد موضوعات لم يسمع عنها سقراط أيضاً مثل "التقنية والبيئة"، هل نغش أولادنا؟ الطبيعة والبيئة، حقوق الملكية وقانون البيئة، أخلاق البيئة، تحليل قيمة الحياة، موضوعات أخلاقية عن القانون، والإعلام، والطب، النساء في الجيش، حول بيع الأعضاء البشرية، الحب والعدالة، الدين والأخلاق .. إلخ.

ومرة ثانية هذه كلها موضوعات لم يسبق أن تعرض لها فلاسفة الأخلاق عند اليونان ولا عند الرومان، ولا في العصر الوسيط ولا حتى في العصر الحديث، وهذا نموذج من بين نماذج كثيرة تبرهن على أن موضوعات الفلسفة متجددة متغيرة بحسب العصر[6].

القضية الأولى: فلسفة البيئة[7]

عكف الفلاسفة في بدايات القرن العشرين على دراسة اللغة واللسانيات، واهتموا بالتحليل وفلسفة العلم ومناهجه ولا سيما في العالم الإنجلوسكسوني، في حين اهتمت فلسفات القارة بالظاهريات، وبالوجودية بصفة خاصة، ثم بدأت هذه الفلسفات كلها تندرج ليحل محلها منذ ستينيات القرن الماضي وسبعينياته

فلسفات جديدة ومختلفة تدور حول الحياة السياسية والثقافية والحركات المدنية والبيئة ومجال الحيوان، وفرضت هذه القضايا الجديدة نفسها على الفلاسفة داخل الجامعات وخارجها وأصبحت تدرس في الصفوف الدراسية والمناهج المختلفة، وتبحث في المجالات الفلسفية المختلفة على نطاق واسع..! وأثار بعض الفلاسفة سؤالاً مهماً جديداً بقدر ما هو جريء، وهو: هل البشر هم الكائنات الوحيدة ذوات القيمة في هذا الكون؟ ثم تفرعت عن هذا السؤال المحوري أسئلة أخرى كثيرة، مثل:

أتنحصر الالتزامات الأخلاقية عند البشر في دائرتهم فقط أم أنها يمكن أن تمتد لتشمل الحيونات، والنباتات والطبيعة بصفة عامة أو ما يسمى - باختصار- "المنظومة البيئية .. Ecosystem"؟ التي يعتمد عليها الإنسان في حياته ..

ولقد لاحظ كثير من فلاسفة البيئة المشكلات التي أحدثها الإنسان في هذه المنظومة: الانفجار الحقيقي للسكان من البشر وما ترتب عليه من تلوث الهواء والماء .. صيد الأسماك، وانقراض بعض الحيوانات، تدمير بعض الأنواع من الأشجار، ومن الكائنات الحية، التصحر وتبوير الأرض الخصبة، تآكل الطبقة الفوقية من التربة، وإضعاف الأرض الزراعية .. وهذا الدمار الواضح في البيئة يقوم به الإنسان، ولهذا قيل: إن جوهر الفلسفة البيئية هو الثورة على الإنسان الذي اعتبر المشكلة الحقيقية في البيئة، فما أن دخلنا الألفية الثالثة حتى بدا واضحاً أن درجة الانهيار البيئي لا يمكن أن تدوم لفترة أطول من ذلك دون أن نصل إلى نتائج بشعة على الإنسان نفسه الذي يعطي نفسه مكانة أعلى كثيراً من جميع الكائنات الحية، بل موجودات الطبيعة، في الكون. وعلى الرغم من أن بعض الفلاسفة أطلقوا على هذه الظاهرة اسم "الشوفينية البشرية Human Chauvinism" نسبة إلى نيقولا شوفين Nicolas Chauvin - وهو جندي فرنسي عُرف بوطنيته المفرطة وإعجابه الشديد بنابليون بونابرت. وملخص الفكرة أن الإنسان يتعصب لبني جنسه دون أن يهتم أدنى اهتمام بالكائنات البيئية الأخرى التي يعمد إلى تدميرها عن علم أو غير علم، أما الموجود البشري فهو منحاز له تماماً[8].

ويشير كثيرون إلى عالمة البيولوجيا الأمريكية راشل كارسون

Rachel Carson (1907 – 1964) وإلى كتاباتها عن تلوث البيئة والتاريخ الطبيعي للبحار.

لقد كان لديها شغف كبير بحياة البرّية منذ الصغر، وأدى هذا الشغف بـ"الآنسة كارسون" إلى دراسة أحوال الصيد والصيادين، وكان من نتيجة هذه الدراسة كتابها "البحر حول الولايات المتحدة الأمريكية" عام 1951[9].

غير أن كتابها الذي أحدث ضجة كبيرة ولفت الأنظار إلى التلوث البيئي باستخدام المبيدات بصفة خاصة – ومنها .D.D.T – هو كتابها الشهير! "Silent Spring " عام 1962؛ فهذه المبيدات التي يستخدمها الإنسان بلا تحفظ أدت إلى مقتل الملايين من العصافير الصغيرة المحبوبة التي كانت تشيع البهجة في أرجاء المنطقة التي لاذت بالصمت! ومن هنا جاء اسم كتابها "الربيع الصامت".

قبل صدور كتاب "الآنسة كارسون" بعامين، كان الفيلسوف الفرنسي الوجودي "جان بول سارتر" قد أصدر كتابه "نقد العقل الجدلي"، الذي ناقش فيه معنى البراكسيس Praxis (وهي كلمة يونانية الأصل تعني النشاط الذي يتضمن غايته في داخله، أو النشاط الغرضي الذي لا يكون لدى الأطفال)، غير أن هذا النشاط البشري الهادف يمكن أن ينقلب إلى غاية مضادة Contre - Finalité، وهو يسوق على ذلك مثالين، يهمنا المثال الأول الخاص بالفلاحين الصينيين الذين ظلوا طوال أربعة آلاف سنة يكافحون الأدغال والغابات، وكان أحد أوجه نشاطهم هو إزالة الغابات Le.. Déboisement[10] وقد زاولوه قرناً بعد قرن، ويسميه "سارتر" بالبراكسيس السلبي الذي كانت نتيجته غياب مساحات كبيرة من الغابات يدهش لها كل أوروبي يحلق اليوم بالطائرة فوق الصين. "ولو أن عدواً لدوداً أراد أن يضطهد عمال الصين الكبرى، فإنه لم يكن ليفعل شيئاً سوى أن يطلب من جماعة من المرتزقة أن تزيل الغابات والأشجار من ذلك بطريقة نسقية منظمة.."[11]. ولقد جاء هذا النشاط السلبي للبراكسيس الإنساني بكارثة أخرى غير اختفاء الأشجار؛ ذلك لأن سفوح الجبال والتلال والمنحدرات التي تقطع أشجارها لم تعد تقوى على الاحتفاظ بما يسقط عليها من الأمطار، فتجرف مياهها التربة العليا الخصبة حتى تجدب وتخلو من العوائق التي تحول

دون انسياب السيول على الوديان وإغراقها. . وهكذا فإن عمليات الفيضانات الصينية المرعبة تظهر كميكانزم خالص[12].

ويرى سارتر أن العدو اللدود الذي يسمح بالفيضانات والكوارث هو الفلاح الصيني نفسه، وصحيح أن فعله إذا ما نُظر إليه في صيرورته الحية وجدنا أنه لا يشتمل – بطريقة قصدية ولا بطريقة واقعية – على صدمة النهاية هذه[13].

وينتهي سارتر من ذلك كله إلى القول: إن الهدم الذي تقوم به الطبيعة أهون بكثير من الهدم الذي يمارسه الإنسان؛ لأن الهدم الذي تقوم به الطبيعة غامض. . وربما يترك أجزاء بأكملها دون أن يصيبها أذى. أما الهدم البشري فهو نسقي منظم، هذا الفلاح يبدأ من فكرة هي التي تحدد البراكسيس (الفعل أو النشاط الغرضي)، وهي أن جميع الأشجار التي في حقله لابد من تدميرها. ومن هنا فإن غياب الأشجار يشير في هذا الحقل ذاته إلى الطابع النسقي للبراكسيس. والعمل البشري على هذا النحو ينتشر في الطبيعة ويشكل في الطبيعة خطراً على الغايات البشرية حين يكون حقلاً من الغابات المضادة[14].

وهكذا، ينبهنا جان بول سارتر إلى خطورة أفعال الإنسان في البيئة قبل ظهور كتاب الآنسة "كارسون" بعامين كاملين، بل إنه يرى أن الدمار الذي يلحقه البراكسيس البشري أشد خطورة على البيئة من دمار الطبيعة، ثم ترك هذا الموضوع المهم للفلاسفة في الألفية الثالثة ليقولوا فيه قولهم، وليطرحوا السؤال المهمّ: من أين جاء هذا الإعلاء من قيمة الإنسان والتقليل من قيمة الموجودات الأخرى في الكون؟.

والواقع أن هذا التصور قديم قدم هيراركية أرسطو؛ أي الترتيب التصاعدي للموجودات في الكون: أدناها درجة الأشياء الجامدة يعلوها النباتات التي تتغذى على الموجودات الجامدة، ثم يعلو النباتات الحيوانات التي تتغذى على الموجودات الجامدة والنباتات، ثم يأتي الإنسان في قمة الموجودات التي اعتبرت كلها في خدمته.

ولقد ترتب على هذه النظرة الأرسطية الهيراركية نتائج بالغة السوء؛ فقد

جاء عالم الفلك المصري بطليموس ليضع نظرية في الفلك هي النظرية الجيوسنزية Geo-Centrism التي جعلت من الأرض مركزاً للكون، وتلقتها الكنيسة بترحاب كبير لتعلي أيضاً من شأن الإنسان؛ فما دام الكون بأسره قد خُلق من أجل الإنسان فلابد أن تكون الأرض التي هي منزل الإنسان ومسكنه مركزاً للكون، فاحتضنت نظرية بطليموس وأضفت عليها قدسية دينية حتى إن "كوبرنيكس" عانى تهمة الكفر عندما حاول أن يغير من نظرية بطليموس ليضع الشمس في المركز وبقية الكواكب تدور حولها، وهي النظرية المعروفة بالهليوسنترية Helio- Centrism (نسبة إلى هليوس اليونانية؛ أي الشمس).

الهيراركية Hierarchy

أو

مراتب الموجودات عند أرسطو

(من الأدنى إلى الأعلى)

"حيث ينفرد الإنسان بالقمة"

وهذا الترتيب التصاعدي يجعلنا نعود إلى علم الأخلاق Ethics مرة ثانية.

القضية الثانية: علم الأخلاق Ethics

سبق أن ذكرنا في التمهيد أن "علم الأخلاق" تغيَّرت موضوعاته تغيراً جذرياً، وصار يدرس موضوعات لم تخطر على بال أي من فلاسفة اليونان حتى في عصرهم الذهبي: سقراط وأفلاطون وأرسطو.

ولقد طرح الفلاسفة في عصرنا الحاضر موضوع أخلاق البيئة وتساءلوا منذ البداية: مَن الذي جعل الإنسان صاحب السيادة على موجودات الطبيعة؟ هل تُبحث الأخلاق والواجبات من زاوية الإنسان فقط؟ وكانت الإجابة نعم! الأخلاق السائدة تبحث الموضوعات من زاوية الضرر الإنساني فقط؛ فالمبدأ المأخوذ به هو: لا تفعل كذا؛ لأنه ضار بالإنسان: بك أو بغيرك: "لا تقطع هذه الشجرة وإلا أصبت نفسك أو الآخرين بأضرار كثيرة". لكن الأشجار ليست موضوعات أخلاقية قائمة بذاتها.. إن تقطيع الأشجار، وتلوث المياه، وفساد الجو، أو تلوث الهواء بالمبيدات مثل D.D.T كالتي أشارت إليها الآنسة "كارسون" - لاينظر إليها من زاوية أخرى غير صحة الإنسان وحده. ألا يمكن أن تكون هناك واجبات إنسانية تجاه البيئة وما تزخر به من موجودات وكائنات حية أو غير حية؟ وهكذا بدأت تظهر أسئلة مختلفة تماماً مثل: هل نحن بحاجة إلى أخلاق جديدة؛ أخلاق أكثر شمولاً واتساعاً؛ بحيث تشمل موجودات الطبيعة أيضاً؟! هناك أخلاق تقليدية معروفة، لكن ألسنا بحاجة إلى أخلاق عُليا تشمل أخلاق البيئة وعلاقة الإنسان بالأرض، والماء، والهواء والنبات والحيوانات..؟.

هذا الموضوع هو الذي يشغل بال فلاسفة الأخلاق الآن. ومن هنا، فإن ريتشارد سلفان Richard Selvan الفيلسوف، والأستاذ بجامعة كانبرا الأسترالية- كتب كتاباً عن "فلسفة البيئة"، كما نشر بحثاً بعنوان "نحن بحاجة إلى أخلاق بيئية جديدة"، وقد نشر هذا البحث لأول مرة عام 1973، وهو يقول في بداية بحثه: "نحن بحاجة إلى أخلاق جديدة تبحث في علاقة الإنسان بالأرض، والحيوان، والنباتات التي تنمو عليها. لكن ذلك لا يعني أن الأخلاق القديمة لم تبحث علاقة الإنسان بالبيئة، ولكنها بحثته من زاوية ما يجلبه للإنسان من أضرار ومنافع؛ أما ما لا يؤثر فيه فليس موضوعاً للاستهجان الأخلاقي.

وإلى جانب ذلك فهناك أفرع كثيرة في قضية الأخلاق، مثل:

أ - أخلاق الإنسان: نسبية أم مطلقة؟

لقد ساد القول بدايات القرن العشرين بأن الأخلاق نسبية؛ فهي - في رأي هذا الفريق - مرتبطة بظروف الزمان والمكان، فما قد يبدو في مجتمع صواباً أو

أخلاقياً قد يبدو في مجتمع آخر أو زمان مختلف معارضاً للأخلاق، وما قد يبدو في عصر صالحاً أخلاقياً قد يبدو في عصر آخر معارضاً للأخلاق، وهذه فكرة قديمة لخصها أحد فلاسفة اليونان في عبارة موجزة بقوله: "لو أنك جمعت في كومة واحدة سائر العادات والفضائل التي تعد في بلد ما مقدسة أخلاقياً، ثم نزعت منها جميع العادات والتقاليد التي تعد في بلد آخر رذائل ولا أخلاقية فلن يبقى في الكومة شيء يذكر.!".

بل إن الأخلاق يمكن أن تتغير بتغير العصور في البلد الواحد نفسه. ونكتفي بأربعة أمثلة:

1 - العادة الهندية التي تسمى "سوتي" Sutte، وهي تعني وفاء الزوجة لزوجها، وكان من دلائل هذا الوفاء الواضحة أن تُحرق معه عند وفاته!.

2 - وفي بلادنا كنا نستنكر سلوك الشاب الذي يدخل على رئيسه في العمل، أو على الكبير بصفة عامة - في المركز أو الوظيفة أو السن - حاسر الرأس، وذلك على العكس مما كان يحدث في المجتمعات الغربية؛ حيث كانت العادات والتقاليد تفرض على هذا الشاب أن يرفع غطاء الرأس (القبعة) دليلاً على احترامه لهذا الكبير.

3 - في بعض المجتمعات القديمة كان من تمام البر بالوالدين قتلهما إذا بلغا الشيخوخة حتى نجنبهما آلام الأمراض ومشكلات الضعف البشري!.

4 - وكان من عادة الصينين إذا ما عاد صديق صديقاً مريضاً عزيزاً لديه أن يحمل معه كفناً له على سبيل الهدية أو "تابوتاً"!.

والواقع أن هذه الأمثلة كلها، وإن اختلفت في ظاهرها مع الأخلاق فإنها تتضمن في داخلها **مبدأ أخلاقياً مهماً** على النحو التالي:

1 - المرأة الهندية التي ينبغي لها أن تكون وفيّة لزوجها، بأن تحرق نفسها معه عند وفاته - هذا المبدأ الأخلاقي ظل قائماً في جميع المجتمعات. وإن تغير مظهر الوفاء فربما تجسد في قراءة القرآن الكريم على روحه أو

الإتيان بشيخ يقوم بذلك. أو أن تزور قبره بين الحين والآخر، أو أن تقيم "سبيل ماء" باسمه يشرب منه المارة.

2 - أما المبدأ الأخلاقي في المثال الثاني فهو مازال قائماً : "ينبغي عليك أن تحترم الكبير" . وما تغير هو غطاء الرأس سواء وضعه أو رفعه.

3 - وفي المثال الثالث نجد جوهر المبدأ الأخلاقي مازال قائماً أيضاً، وهو "ينبغي عليك أن تكون باراً بوالديك" مهما تغيرت وسائل هذا البر بحسب العصور المختلفة.

4 - وكذلك في المثال الرابع "زيارة الصديق المريض" فمازال المبدأ الأخلاقي قائماً" ينبغي عليك عيادة الصديق إذا مرض" ؛ أما نوع الهدية التي تحملها معك فهو الذي تغير بحسب ظروف المجتمع؛ فالمبادئ الأخلاقية لا تتغير على مدار التاريخ ويستحيل عليك أن تجد طوال التاريخ مجتمعاً يقيم دعائمه على مبادئ لا أخلاقية مثل: اسرق، اكذب، اقتل، كن جباناً، لا تتعاون مع أحد. .إلخ.

المبدأ الأخلاقي مبدأ عقلي، دائم فهو مطلق لا يتغير ولا يتبدل: حتى العصابات لابد أن تحكمها مبادئ الأخلاق بين أفرادها.

في قصة سيرفا نيتز "دون كشوت" أن هذا الفارس مرّ على عصابة يوزع رئيسها الغنائم على أفرادها، فسمع أحدهم يعترض على ضعف نصيبه ويقول للرئيس كن عادلاً ولا تظلمني فهذا القدر الضئيل ليس نصيبي ! فعجب من كلام هذا العضو وسأل الرئيس: هل عندكم أنتم أيضاً ما نسميه بالعدل؟! فرد عليه الرئيس حانقاً: بالطبع ! فالعدل لابد أن يسود كل مكان ! فدهش "دون كشوت" أن تكون الفضائل مطلوبة حتى بين اللصوص! .

ب - الكذب الأبيض

هل للكذب ألوان، بحيث يمكن أن نقول إن هذه كذبة بيضاء لا تضر؟ أظن أن هذا خطأ لا يمكن قبوله: فالكذب كذب أياً كان.

ومع ذلك فبرتراندرسل (1872 - 1970) شيخ الفلاسفة في إنجلترا في

القرن العشرين يروي هذه القصة متسائلاً: أفرض أنني أقف أمام بيتي ورأيت رجلاً يجري مسرعاً ويدخل في المنزل المقابل، ثم فجأة يظهر رجل يحمل ملامح الإجرام يجيء مسرعاً وفي يده مسدس يسألني عن الرجل الأول أين ذهب؟ فقلتُ له كذباً: إن الرجل استمر في جريه حتى نهاية الشارع؛ أيكون ما أقوله كذباً؟.

وخذ مثالاً آخر: أفرض أن جندياً وقع في الأسر وراح الأعداء يسألونه عن معلومات عن الكتيبة التي ينتمي إليها موقعها، عدد أفرادها، نوع السلاح الذي تملكه، اسم القائد ورتبته، وقام بتضليلهم والكذب عليهم في هذه المعلومات التي يطلبونها منه فهل يُعدّ عمله أخلاقياً؟.

وخذ مثلاً **ثالثاً** : المريض بمرض عضال يسأل طبيبه عن حالته الصحية، فيخبره أنه بصحة جيدة، وأنه سوف يُشفى قريباً . .إلخ، أيكون بذلك قد خرج من نطاق الأخلاق؟ وهل يسمح له ضميره الأخلاقي بذلك؟ ولماذا؟.

وهناك أمثلة أخرى كثيرة يمكن أن نسوقها تُعبّر عن هذا الموقف نفسه، والواقع أن المبادئ الأخلاقية التي نسلّم بها جميعاً كثيراً ما تعطل أو تتوقف أو تجمّد ولاسيما في أثناء الحروب؛ وذلك لمنع مزيد من الشرور، أو الأضرار الأشد جسامة.! أو إشفاقاً على مريض يستفسر عن مصيره أو شخص يستفسر عن مصير نجله المريض، فلا ضرر من الناحية الأخلاقية من الإقدام على ما يسمى بـ"الكذب الأبيض" لكنه في الواقع ليس كذباً، ومن الخطأ أن نقول عنه إنه كذلك. ولكنه في الحقيقة "تعليق" أو "تجميد" أو "توقيف" لقيمة أخلاقية هي "الصدق" مؤقتاً في سبيل **قيمة أخلاقية أعلى**، هي المحافظة **على حياة إنسان**.

ولنأخذ مثالاً من فلسفة "سرن كيركجور" (1813 – 1835) رائد الوجودية المؤمنة الذي وقف مشدوهاً أمام قصة نبي الله إبراهيم ومتسائلاً: هل تجيز الأخلاق للأب أن يقتل ابنه؟! ويجيب: كلا ! هذه مسألة مستحيلة: تفسر هذه القصة الغريبة؟! ها هنا مغزى القصة **وجوهرها**، إننا أمام موقف لابد أن نقول فيه: إن الأمر الإلهي **أعلى** من الأمر الأخلاقي، ومن هنا فإنه يجيز "تعليق" أو

تجميد" القيمةالأخلاقية، وهي واجب الأب ورعايته وعطفه وحبه لابنه في سبيل قيمة دينية أعلى هي **طاعة الأمر الإلهي**.

ج - العلم ... والقيم الأخلاقية

اكتسب العلم أهمية خاصة في القرن السابع عشر، فأصبح جواز المرور إلى الفردوس المنشود، وعلامة على التقدم. ومع ذلك ظهرت مخاوف كثيرة من الأخطار التي تهدد البشر، ويتسبب فيها العلم عن قصد أو دون قصد، لدرجة أن العلم أصبح مشكلة في نظر البعض، وليس حلاً للمشكلات ! من ذلك على سبيل المثال :

- إلقاء القنابل الذرية على هيروشيما وناجازاكي في أغسطس عام 1945، ثم تخزين قنابل أشد منها فتكاً أو ما سمي بترسانة الأسلحة النووية في العالم، التي تكفي لفناء النوع البشري حتى أصبح هذه الخوف أمراً وارداً.
- الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، والغازات السامة، والبكتريا القاتلة، وذلك كله يزرع الخوف في قلب العالم.
- حدوث فجوة عند الإنسان المعاصر بين فوائد العلم ومضاره؛ مما جعل الناس يثيرون مشكلة الأخلاق، ويقولون: ما فائدة العلم بغير أبعاد إنسانية وأخلاقية؟.
- وهكذا أطلت الفلسفة برأسها من جديد محطمة الحدود التي وضعت لها تجاه العلم لكي تبحث عن المعنى والقيمة في الحياة، ومن ثم تعيد تشكيل جوانب الوجود والقيم، وشعرت أن هذا التزام فلسفي لابد أن تقوم به.
- زادت المعرفة العلمية، وزادت قدرتنا على التحكم في الأشياء والسيطرة على الطبيعة، لكن ظهرت معها قضايا جديدة تدور حول ما هو صواب وما هو خطأ، ما هو خير وما هو شر. فإذا كان العلم يبتكر لك السيارة فإنه لا علاقة له بآداب المرور، وإذا كان قد ابتكر "التليفون"، و"التليفزيون" فإنه لا علاقة له بما يقال فيهما. وإذا رأيناه يحاول السيطرة على الإنسان بعد أن

سيطر على الطبيعة أو كاد فلابد للفلسفة من التصدي لموضوع القيم ودراسة علاقتها بالعلم.

- لقد حذر أحد العلماء في مؤتمر بالنمسا من بنوك الأعضاء التي أصبحت تصنع أطفالاً من كل نوع عن طريق الأنابيب ليأخذ منها الجراحون ما يحتاجون إليه من أعضاء "يد" أو "ساق" أو "قلب" أو "كبد"..إلخ لأطفال الأغنياء القادرين على أن يدفعوا ما تطلبه هذه البنوك من مال! فقد أصبح الجراحون يقومون بتقطيع الأطفال والاحتفاظ بأشلائهم وبيعها مثلما يحدث مع قطع غيار السيارة !.

- ومن ناحية أخرى فقد نشرت "مجلة الطبيعة" بتاريخ 27 فبراير عام 1997 خبر استنساخ النعجة دوللي Dolly من خلية من ضرع نعجة أخرى، وتعالت الأصوات محذّرة من استنساخ عبيد كآلة بلا حقوق أو طغاة من أمثال موسوليني وهتلر، وصدام والقذافي.. إلخ؛ أي صناعة البشر بحسب الطلب. فهل سيأتي علينا الدور بعد الأغنام؟! ويرى البعض الآخر أن الاستنساخ تجربة علمية جديدة وفريدة يجب ألا نقف في طريقها!.

- والموضوع الأخير الذي يربط بين العلم والأخلاق هو موضوع القتل الرحيم، وقد أثار في إنجلترا مريض بالسرطان طلب من إبنه أن يخلصه من آلام المرض الذي لا أمل في التخلص منه، واستجاب الابن لرجاء والده فأحضر مسدساً وقتله، وتمَّ القبض عليه ووجهت إليه تهمة القتل العمد، وهنا ثارت الصحافة وأحدثت ضجة كبرى اشترك فيها المفكرون وفلاسفة الأخلاق وفقهاء القانون ولايزال الموضوع حائراً بين الفلسفة والعلم..!.

وبقي أن نطرح سؤالاً مهماً هو: هل يقضي العلم على خصوصية الإنسان؟! فقد اخترعت كاميرات للتصوير بالغة الصغر وبالغة الدقة في الوقت نفسه، يمكن أن توضع في أي مكان دون أن يراها أحد في المنزل وتقوم بعمليات التجسس وتصوير كل ما يحدث في المنزل، فهل تجيز الأخلاق ما يقوم به العلم من عمليات لم تكن تخطر للإنسان على بال؟.

القضية الثالثة : الديمقراطية والفلسفة السياسية

قد يتساءل البعض كيف يمكن أن تكون الديمقراطية من القضايا المعاصرة، مع أنها بدأت من أثينا في بلاد اليونان، ومازالت التسمية يونانية – Demos Kratia "أي حكم – الشعب"– مارة بتاريخ إنجلترا الطويل من الماجناكارتا Magna-Carta (الميثاق الأعظم الذي اضطر ملك إنجلترا الملك جون أو يوحنا إلى توقيعه (في 15 يونيو 1215) بعد أن ثار عليه النبلاء، إلى الحرب الأهلية في القرن السابع عشر، ثم الثورة الأمريكية وإعلان الدستور في 4 يوليو عام 1776، إلى الثورة الفرنسية عام 1789 . . إلخ.

وإذا كان للديمقراطية مثل هذا التاريخ الطويل فكيف يمكن أن تكون قضية من القضايا المعاصرة؟!.

والواقع أن قضية الديمقراطية من القضايا المتجددة على الدوام وستظل كذلك. فما أن سقط الاتحاد السوفييتي، وانتهت الدولة الشيوعية الشمولية في سبتمبر عام 1991 حتى كانت أسهُم النظام الديمقراطي والليبرالي السياسية في صعود مستمر.

فقد كتب المفكر الياباني الأصل الأمريكي الجنسية فرانسيس فوكوياما Francis Fukuyma مقالاً عن "نهاية التاريخ" في مجلة National Interest الأمريكية عام 1989[15]، ثم طوره بعد سقوط الاتحاد السوفييتي إلى كتاب يحمل الاسم نفسه، نشره عام 1993، ذهب فيه إلى أن إجماعاً ملحوظاً قد ظهر في السنوات القليلة الماضية في جميع أنحاء العالم حول شرعية الديمقراطية الليبرالية كنظام للحكم، بعد أن لحقت الهزيمة بالأيديولوجيات المعارضة أو المنافسة وآخرها النظام الشيوعي. وأضاف أن هذه الديمقراطية قد تشكل نقطة النهاية في نظام الحكم البشري، ومن ثم فهي تمثل "نهاية التاريخ"؛ بمعنى أنه من غير المستطاع أن نجد ما هو أفضل من الديمقراطية الليبرالية مثلاً أعلى لنظام الحكم.

ومعنى ذلك أننا في القرن العشرين شهدنا سقوط الأنظمة الدكتاتورية:

– السلطوية العسكرية: فرانكو في إسبانيا، هتلر في ألمانيا، موسوليني في

إيطاليا – وفي عالمنا العربي – حديثاً – صدام في العراق، والقذافي في ليبيا . . إلخ.

– الدكتاتورية الشيوعية الشمولية بسقوط الاتحاد السوفييتي في سبتمر عام 1991.

وهي كلها تفسح الطريق أمام الديمقراطية الليبرالية المستقرة.

بدأ "فوكوياما" من مقدمات مهمة، وانتهى إلى نتيجة مهمة أيضاً. فما هذه المقدمات وما هي تلك النتيجة ؟

أما المقدمات فهي مستمدة من الفيلسوف الألماني العظيم هيجل (1770 – 1831) مارة بتأويل الفيلسوف الفرنسي الجنسية الروسي الأصل ألكسندر كوجييف (1902 – 1968) الذي كان من علية القوم في روسيا لكنه هرب من روسيا إلى ألمانيا، ثم استقر في باريس عام 1933، واهتم اهتماماً شديداً "بظاهريات الروح" لهيجل، ولاسيما جدل "السيد والعبد" الذي كان يجد فيه محوراً للمسار التاريخي للبشر، ويعتقد أن هذا التاريخ قد وصل الآن إلى نهايته؛ (أي نهاية النظم السياسية)، وقد أثَّرت هذه الفكرة في كثير من مستمعيه من أمثال "ميرلوبونتي" و"لكآن"، و"أريك فيل" . . وكان منهم "فوكوياما. . " .

وفكرة هذا الجدل – باختصار شديد – أن هيجل كان يرى أن الإنسان يشترك مع الحيوان في حاجات طبيعية كثيرة وأساسية، ويختلف عنه في أنه "وعي ذاتي" ؛ أي الوعي الذي ينعكس على نفسه ويمكنه من أن يقول "أنا"، وهو ما لا يستطيع الحيوان أن يفعله، وهو يريد من الآخر أن يعترف له بذلك، لكن الآخر هو نفسه "وعي ذاتي" ومن ثم لديه الرغبة نفسها، "وهكذا نجد أن الفرد يرغب في رغبة الآخر" مع ملاحظة أن إدراك المرء لنفسه يعطيه "قيمة خاصة" و"كرامة" و"مكانة" تعلو على موجودات الطبيعة، ولهذا فهو يصر على أن يعترف به الآخر الذي يتمتع بهذه الميزة أيضاً، وهكذا ينشب صراع بينهما ومَنْ يستمر في الصراع حتى نهايته؛ فهو "السيد" أما مَنْ يجفل ويخاف أو يجبن فيتحول إلى "عبد" . ولقد ظل الصراع عنيفاً بين البشر، وهذا هو تفسير

ظاهرة "الرق" عند هيجل وأسباب ظهوره في التاريخ. حتى جاءت الثورة الفرنسية فألغت "الرق" عندما أعلن "الكونت دي ميرابو" ..Conte de Mirabeau (1749 – 1791) خطيب الثورة أن وجود الرق في المستعمرات الفرنسية ضد مبادئ الثورة، ومن هنا اعترفت الثورة بإنسانية جميع البشر، وكرامتهم وقيمتهم، ومن ثم كان الحكم الديمقراطي الذي لا يفرق بين مواطن وآخر، ولا بين إنسان وإنسان؛ لأنه "حكم الشعب بأسره" وليس حكم فئة معينة ولا طبقة خاصة.

وهكذا كانت الديمقراطية تجربة إنسانية جاءت بعد كفاح الإنسان وصراعه من أجل إثبات هويته وآدميته. ثم ظهرت مشكلة أخرى في ميدان الفلسفة السياسية، وهي:

هل يمكن تبرير قيام الدولة الديمقراطية تبريراً عقلياً ..؟ وهل يمكن إثبات تفوقها على غيرها من أنظمة الحكم، وفقاً لأسس عقلية؟ وما الاعتراضات التي يمكن أن توجه إلى مثل هذا النظام ؟! .

ولقد ذهب بعض الفلاسفة إلى أن الديمقراطية تستند إلى بعض القضايا مثل أن "جميع الناس متساوون" وأن "جميع الناس أحرار" وأن "للناس حقوقاً معينة هي جزء من طبيعتهم"، مثل "حق الحياة، وحق العمل، وحق الحرية، وحق التنقل"، و"حق البحث عن السعادة".. إلخ. ولقد أقيمت الحكومات لتحقيق هذه الحقوق، ولهذا فهي تستمد سلطتها من رضا المحكومين، فإذا فشلت الحكومة أو هدمت هذه الحقوق وجب على الشعب إسقاطها، ولكن على الرغم من مزايا الديمقراطية فهناك إشكالات كثيرة بداخلها، يحاول الفلاسفة حلّها، فماذا يعني المبدأ الأول الذي يقول إن الناس جميعاً متساوون؟ وما المقصود بالمساواة؟ "أهي المساواة في المواهب أم المساواة في الدخل، أم المساواة أمام القانون؟ أم أنها المساواة في الفرص؟ الحق أن كلمة "المساواة" يمكن أن تعني جميع هذه المعاني. وما نوع هذه القضية "إن الناس جميعاً متساوون؟ أهي قضية تجريبية كقولنا: "الماء يغلي في درجة حرارة 100° "؟ وعموماً فهذه الأسئلة تكشف لنا عن الطابع المميز للتناول الفلسفي للأفكار السياسية.

الديمقراطية هي حكم الأغلبية، لكن ما المبرر العقلي لخضوع الأقلية المعارضة لمشيئة الأغلبية؟ ألسنا أمام ما يسمى بطغيان الأغلبية ضد الأقلية الضعيفة؟! وهل يعكس صوت الأغلبية هنا إرادة الأمة ؟ أيمثل المجلس النيابي الشعب فعلاً؟ أم أنه يمثل أصحاب المصالح؟ .

وماذا عن اللجان الصغيرة داخل المجلس؛ أهي حقاً تمثل مصالح الأمة؟ وإذا افترضنا أن البرلمان يمثل الشعب فعلاً، فهل ما تعتقده الأغلبية هو الصواب أو الخير للأمة، وهل هو كذلك على الدوام؟ .

لقد كانت الغالبية العظمى من الأمريكيين يعتقدون حتى وقت قريب أن "الرق" صواب وعدل، وكانت هذه الغالبية المتسلطة تجبر الأقلية المعارضة على الصمت، وفي استطاعتك أن تقول مثل ذلك بالنسبة إلى اشتراك المرأة في العمل السياسي، وملخص ذلك أن الأغلبية يمكن أن تكون **على خطأ**. ومن ثم "لا يمكن أن تصل الغالبية الحمقاء إلا إلى قرارات حمقاء. وقد تكون القلّة الحكيمة صاحبة قرارات حكيمة؛ قد يقال: ألا يمكن أن تأتي قرارات الأغلبية حكيمة أيضاً ولو من باب المصادفة؟ لكن حتى لو سلَّمنا بذلك فإنه لا يكون مبرراً للقبول الدائم لقرارات الأغلبية، وللقول: إنها هي التي ينبغي أن تحكم.

ثم ماذا نقول في أمر الأغنياء وأرباب الملكيات الكبيرة؟ ألا يقول البعض إنها أقدر على تحمل عبء تقرير المصير في البلاد..؟ ألم يكونوا هم الذين أرسوا دعائم الديمقراطية في إنجلترا منذ ثورتهم على الملك جون عام 1215، ثم الملك شارل الأول في القرن السابع عشر .. إذن؛ فمن حقهم تقرير سياسة البلاد بحكمة؛ لأنهم يخشون التعرض للخسارة أكثر من الفقراء و"الغلابة"..؟ .

وأخيراً لابد أن نقول إن الديمقراطية الأمريكية كانت باستمرار ترتبط بعلاقات سيئة بالدول الأخرى؛ لأنها لا تبحث إلا عن مصالحها فحسب؛ فهي نموذج سيئ للديمقراطية..! .

ولسنا نقصد بذلك كله حسم النزاع حول الديمقراطية من حيث المزايا والمساوئ بل الإشارة إلى المشكلات التي تكتنف هذا النظام من كل جانب.

لقد حاول جون ديوي John Dewey (1859 – 1952) – وهو أحد كبار الفلاسفة الذين دافعوا عن الديمقراطية – تفسير ديمقراطية القرن التاسع عشر الأمريكية بطريقة قد تبدو متجاوبة مع المجتمع الصناعي التقني في القرن العشرين، وذلك على النحو التالي:

تراءت له الديمقراطية أسلوباً شاملاً للحياة وليست مجرد صورة من الصور الكثيرة لنظام الحكم.

ومن هنا كانت الديمقراطية عند "ديوي" جسماً كاملاً وضرورياً للمجتمع البشري.

الديمقراطية – في رأيه – أفضل وسيلة لتحقيق مشاركة كل إنسان في تشكيل القيم التي تنظم عيش الناس سوياً.

ويرى "ديوي" أن عملية تشكيل القيم عملية مستمرة لا تنتهي، كما أن روح الديمقراطية الليبرالية لا تتوقف عند نقد المبادئ الأولى.

كما أن نقد الديمقراطية يدعمها ولا يضعفها، ومن ثم ينبغي أن تكون الحرية الأساسية في الديمقراطية هي **حرية العقل**؛ فهي الشرط الأساسي لازدهار الليبرالية.

ديوي .. والطبيعة البشرية

يعود ديوي إلى الطبيعة البشرية لتبرير الديمقراطية، فليس من طبيعة البشر أن يعرف أحد كل شيء أو أن يكتسب الحكمة أو الفضيلة التي تمكنه من أن يحكم الآخرين دون رضاهم، وكما تقول الحكمة اليونانية القديمة: "إن الإسكافي يصنع الحذاء، لكن مَنْ ينتعله هو وحده الذي يعرف أين يضايقه"! ومهما يكن في الديمقراطية من مثالب وثغرات فقد أثبتت فاعليتها في تنبيه الحكام على أحوال المحكومين وحثهم على العمل لإزالة الألم وتخفيف المعاناة أكثر من أي نظام دكتاتوري عرفه التاريخ. ولابد للمواطنين أن يوقفوا الحكام عند حدِّهم، وإلا فإن الحكام مهما تكن نواياهم طيبة فإنهم لن يكفوا عن اضطهاد المحكومين، علماً بأن جميع أشكال الاستبداد شر ودمار للمواطن

وللدولة. ثم أتعني المساواة مساواة الفرصة: فرصة كل فرد في الكشف عما بوسعه أن يفعله أم هي التسوية Egalitarianism كما كانت عند بروكرست Procrust قاطع الطريق في الميثولوجيا اليونانية الذي كان يسكن في أعلى الجبل فإذا مرّ عابر سبيل أصرَّ أن يستضيفه في منزله، ولم يكن لديه سوى سرير واحد ينام عليه الضيف العزيز، فإذا كان أطول من السرير قصَّ "بروكرست" الزيادات حتى يتساوى بالسرير تماماً، وإذا كان أقصر مط رجليه ليحقق هذه المساواة، وفي الحالتين يقتل الضيف تحت اسم "المساواة" ولكنها "تسوية" في حقيقة الأمر؟!.

انتقادات أخرى للديمقراطية

أولاً - انتقادات منكن H.L. Menken

هنري لويس منكن (1880 –1956) مفكر وناقد أمريكي كان على علم بأساليب السياسة الأمريكية كما كان مهتماً بفلسفة نيتشه. ولقد كان يعتقد أن الجميع ينظرون إلى النظام الديمقراطي من ضباب المثالية، فلا يرون هذا النظام كما هو بالفعل، وإنما كما يشتهون.

وفي رأيه أن الديمقراطية نظام سياسي يعقد منافسة بين مجموعة من الأوغاد" للوصول إلى الحكم! فجميع الساسة – بلا استثناء – مخادعون، وأسوأهم – في رأيه – المصلحون؛ لاهتمامهم بتغطية أساليبهم في الغش والخداع واصطناع الفضيلة!.

كما أن الديمقراطية تتطلب من قادتها التخلي عن الأمانة، وهي تثابر على تفتيت الأخلاق عوضاً عن القمع والعنف على نحو ما يحدث في أي نظام تسلطي.

أما الديمقراطية الأمريكية فهي – في رأيه على وجه التحديد – زائفة؛ لأن رجل الشارع ليس لديه أي نوع من الحكمة، وإنما لديه خوف من **الأفكار**، وهو لا يتطلع إلى الحرية بل يخشاها..

وهناك أغلبية ترغب في الحرية الفكرية مثل "جون ديوي": ولقد وقع جون ديوي – في رأيه – في الخطأ الشائع، وهو أن أغلب الناس يرغبون فيما يرغب هو نفسه فيه! كما أن الليبراليين يقعون في الشعوذة؛ لذلك اتصفوا بالواقعية وتوقعوا ذلك في ظل الديمقراطية.

ويستمر "منكن" في نقده العنيف للديمقراطية فيقول: إن رجل الشارع – في العادة – لا يريد **المساواة** في الفرص التي تتيح للأفضل أن يتفوق. وأن ينمي هذا التفوق، ومن ثم يتحقق له الانتصار على مَنْ يصغره. كما أنه لا يقبل ولا يسعى أن يكون في مستوى أقل من الأخيار، ولكنه يتطلع إلى التميز على مَنْ هم أفضل منه. إن رجل الشارع يحيل كل قضية سياسية في النظام الديمقراطي إلى قضية أخلاقية لتصبح الأخلاق، والعدالة، والضمير. . .إلخ، السلاح الرئيسي للضعفاء.

كما أن الديمقراطية الأمريكية – في رأي منكن – تنمي قيماً باطلة؛ فهي ترفع من شأن الحمقى والجبناء والأنذال، وتضطهد الأمناء الذين لا يُشترون بالمال . .

فضلاً عن أن الصراع بين أقلية متفوقة تكافح من أجل الارتقاء والتقدم، ومحاولات الأغلبية الحسودة المتدنية – هو السمة الغالبة على الديمقراطية؛ فهي حرب دائبة تشنها هذه الأغلبية الرجعية. ومن الواضح تأثر "منكن" بفلسفة "فردريك نيتشه" وميله إلى التفرد، والأوحد، والإنسان الأعلى وكراهيته للجموع والأغلبية الساحقة من البشر؛ فهو يعرض علينا وجه زرادشت المتعالي على الجماهير. ومن هنا كان نقد "منكن" يحتاج إلى الرد عليه ومناقشته في بحث مستقل!

ثانياً – انتقادات الفيلسوف الألماني وعالم الاجتماع "روبرت مايكلز" (1876 – 1936) Robert Michels، وسوف نختصر انتقاداته في النقاط الآتية:

1 – يرى مايكلز أن جميع التنظيمات السياسية لديها ميول أوليجاركية (حكم القلّة لصالح نفسها، وهي تتألف من مقطعين حكم Arche – Oligos قلّة)، وهو افتراض صاغه مايكلز باسم "القانون الحديدي للأورليجاركية".

2 – تسير دفة الحكم في يد قلّة، تقوم بهذا الدور دون الرجوع إلى الشعب، في معظم الأحيان.

3 – الحكم الديمقراطي – في رأيه – يعبّر عن أكذوبة كبرى تسمى "حكم الشعب"، والصحيح أنها حكم القلّة!.

4 – دور الشعب أو الأغلبية ينتهي بانتهاء الانتخابات، وبمجرد ما يدلي المواطن بصوته فإنه يفقد حريته، وتنتهي علاقته بالحكم ونظامه؛ حيث أعطى حق الحكم للآخرين.

5 – القلّة هي التي تحكم بالفعل في جميع الأنظمة السياسية وتصبح الأكثرية مهمشة.

6 – الحكم الديمقراطي الحقيقي هو الحكم المباشر الذي كان قائماً في أثينا، أما الديمقراطية المعاصرة فلم يبق منها سوى الاسم؛ ذلك لأنها في الواقع حكم القلّة أو النخبة الحاكمة، فهي التي تسيرّ دفة الحكم.

القضية الرابعة : .... الحيوان

القضية الأخيرة التي نود أن نعرض لها هي قضية **الحيوان** التي شغلت مركزاً مرموقاً في فلسفة البيئة المعاصرة، ويعود جانب من هذا الاهتمام بالحيوان إلى بيتر سنجر ..Peter Singer أستاذ الفلسفة في جامعة برنستون في الولايات المتحدة؛ فقد نشر في صيف 1974 بحثاً بعنوان: "كل الحيوانات متساوية"، ذهب فيه إلى أن الإنسان مغرم بالتفرقة والتمييز العنصري بين البشر أنفسهم:

1– فقد كان اليونانيون – على سبيل المثال – يعتقدون منذ أقدم العصور أنهم أرقى شعوب الأرض وأن بقية البشر عبيد لهم. وكان المعلم الأول (أرسطو) يرسل إلى تلميذه الإسكندر الأكبر ينبهه على أن معاملة البشر ليست واحدة أو متساوية: "عامل الشرقيين على أنك سيد، وعامل اليونانيين على أنك قائد".! في حين أن المصريين (ولاسيما كهنة الفراعنة) كانوا يعتقدون أن اليونانيين أنفسهم ليسوا سوى أطفال بالنسبة إليهم[16]!.

ومازال اليهود حتى الآن يعتبرون أنفسهم شعب الله المختار الذي اصطفاه لنفسه من بين شعوب العالم! .

كما ميزَّ البشر بين الرجل الأسود والرجل الأبيض؛ فلون الجلد كان أحياناً مسأله مهمة. وكان آخر التمييزات العنصرية التفرقة بين الرجل والمرأة. ثم ظهر بين الفلاسفة من بيّن أن هذه التفرقة ليست آخر التمييزات، بل هناك التفرقة بين الإنسان والحيوان؛ فقد ذهب قوم إلى أن البشر يتميزون عن موجودات الطبيعة بالعقل، والذكاء، والشعور، ورقة الإحساس . .إلخ، فوجب تمييزهم عن غيرهم من الموجودات، ولاسيما الحيوان؛ بمعنى أن تكون لهم معاملة خاصة وكرامة لائقة. .إلخ.

لكن هناك فلاسفة آخرين يثيرون عدداً كبيراً من الاعتراضات ضد هذه التمييزات الإنسانية، منها ما يأتي:

1 - لماذا ينبغي أن يكون هناك معاملة خاصة لجميع البشر بلا استثناء، على الرغم من أننا نجد بينهم أطفالاً ومتخلفين عقلياً، ومرضى نفسيين، وشخصيات غير سوية، من أمثال هتلر وموسوليني وغيرهما، فهل يجوز القول إن هؤلاء جميعاً يملكون ضروباً من الكرامة والقيمة لا يبلغها الأسد والفيل والشمبانزي. .؟ الواقع أن الإجابة عن هذا السؤال بالغة الصعوبة.

2 - ويرى بعض الفلاسفة أن هناك مميزات يتميز بها الحيوان ولا توجد عند الإنسان:

أ - مثلاً حاسة الشم عند الكلب أقوى عشرات المرات مما هي عند الإنسان، ولهذا فإن الأخير يستعين بالكلاب بحثاً عن المجرمين وتجار المخدرات واللصوص وغيرهم.

ب - القوة البدنية عند الأسد والفيل أعظم من مثيلاتها عند الإنسان، وقل مثل ذلك أيضاً في القدرة على التحمل عند الجمل والحصان . . إلخ.

ج - الإبصار عند الصقر أقوى بكثير من الإبصار عند الإنسان. وهناك حيوانات - منها الطيور - تستطيع أن تستشعر قُرب وقوع الزلازل والبراكين قبل أن تستشعرها أدق المراصد التي اخترعها الإنسان.

د - الديك يصيح إيذاناً ببداية الشروق، لكنه يذهب إلى النوم مع الغروب؛ في حين تبدأ البومة في الطيران عندما يرخي الليل سدوله؛ مما يدل على دقة الإحساس.

فلماذا لا نوسع القاعدة الأخلاقية لتشمل الكائنات غير البشرية - ولاسيما الحيوانات - إلى جانب البشر؟.

لماذا نجعل الإنسان وحده موضوع الدراسة الأخلاقية؛ ألأنه يتميز بالعقل عن سائر الموجودات؟ وماذا بالنسبة إلى حالة البشرية الهامشية: كالأطفال، والشيوخ، والمعاقين، والمعتوهين.. إلخ؟.

ولماذا يقوم العلماء والباحثون بإجراء تجارب طبية مؤلمة على الحيوانات وحدها دون وخز من ضمير[17]؟.

خاتمة

لا نريد أن نطيل في هذا الموضوع؛ فقد سبق أن أصدرنا فيه كتاباً بعنوان "الفيلسوف .. والحيوان: حوار بين العاقل والأعجم"، فصلنا فيه القول عن الحيوان وقضاياه، مثل:

هل للحيوان لغة؟ هل للحيوان أخلاق؟ هل له دين؟!.. لكنا نود أن نختم هذا الموضوع بفكرة طريفة من تراثنا الإسلامي، وهي أن إخوان الصفاء عرضوا لشكوى الحيوان إلى ملك الجان من ظلم الإنسان وقسوته عليهم. ففي المجلد الثاني من "رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء" رواية عن شكوى الحيوان إلى الملك "بيرات الحكيم" ملك الجان الذي عقد جلسة علنية في الجزيرة الوحيدة وسط البحر الأخضر لبحث شكوى الحيوان من الإنسان، وتقدم البغل خطوات نحو أريكة الملك وقال: لقد تقدمنا بشكوانا إليكم يا صاحب الجلالة بعد أن أعيانا ما لقيناه من بني الإنسان من خسف وهوان؛ فهم يعاملوننا

أسوأ معاملة لا يعرفون عدلاً ولا رحمة، ولا يرعون في الله إلّاً ولاذمة! لقد تصوروا خطأ أننا عبيد عندهم، في الوقت الذي نعاملهم فيه نحن أفضل معاملة ونطيع بغير عصيان أو تمرد!.

وتقدم أحد المحامين من البشر عندما نادى ملك الجان عن الدفاع ! وقال: إن قضيتنا واضحة؛ فهذه البهائم جميعاً عبيد لنا لكنا نراها أماً هاربة أو آبقة عاصية، وإذا عملت فإنها تعمل على مضض. فقاطعه الملك ليسأله: وما حجتكم فيما زعمت للإنسان من سلطان على الحيوان.؟ فأجاب زعيم الإنس : لنا على ذلك الكثير من الحجج والدلائل، منها الشرعية كقوله تعالى: ﴿وَٱلۡأَنۡعَٰمَ خَلَقَهَاۚ لَكُمۡ فِيهَا دِفۡءٞ وَمَنَٰفِعُ وَمِنۡهَا تَأۡكُلُونَ﴾ (5. .النحل) وقوله: ﴿وَتَحۡمِلُ أَثۡقَالَكُمۡ إِلَىٰ بَلَدٖ لَّمۡ تَكُونُواْ بَٰلِغِيهِ إِلَّا بِشِقِّ ٱلۡأَنفُسِۚ﴾ (7. .النحل). .وغيرها كثير تدل على أن صنوف الحيوان ما خُلقت إلا للإنسان ومن أجله.

التفت ملك الجان إلى الحيوان قائلاً: ما رأيكم فيما يقول الإنسان: فرد زعيم الحيوان قائلاً: يا صاحب الجلالة، ليس في شيء من هذه الآيات الكريمة ما يدل على أنهم أرباب لنا. وإلا فما قولك في الآيات الكريمة: "وسخر لكم ما في السماوات وما في الأرض" . أفترى – أيها الملك الحكيم – أنها قد أصبحت بذلك عبيداً للإنسان؟! وأن الناس هم أربابها؟

وهكذا تستمر المحاكمة سجالاً بين الإنسان والحيوان، وهي مناقشات جميلة وحجج وردود رائعة تسوقها إخوان الصفاء قبل أن يظهر فيلسوف واحد في الغرب يدافع عن الحيوان ويطالب بحقوقه! ثم هبط الشرق أسفل سافلين وراح يبحث دون جدوى عن حقوق الإنسان نفسه!.

الهوامش والمراجع

* كتبت هذه الدراسة باقتراح خاص من هيئة تحرير المجلة (استكتاب).

(1) هيجل، جورج: **أصول فلسفة الحق**، ترجمة: إمام عبد الفتاح إمام، ج1، بيروت: دار التنوير، ص88.

(2) - Singer, Peter**: Practical Ethics**, London: Cambridge University Press, 1979.

(3) - Wasserston, R. A: **Today' s Moral Problems**, N. Y. Macmillan Publishing, 1979.

(4) كان أرسطو يمثل قمة العنصرية: فالجنس اليوناني في نظره أرقى أجناس الأرض، وبقية الشعوب عبيد لهذا الجنس الراقي. كذلك التفرقة بين الرجل والمرأة مسألة من وضع الطبيعة وليس للإنسان دخل فيها.. إلخ، ولم يخطر على باله أن الأخلاق تحارب العنصرية!!.

(5) - Mills, Claudia: **Values and Public Policy**, Stamford: Cengage Learning, 1991.

(6) راجع في هذا كله كتابنا: "الفيلسوف.. والحيوان: حوار بين العاقل والأعجم"، الناشر: دار صبح للطباعة والنشر، ص 5-3.

(7) صاغ مصطلح علم البيئة Ecology في أواخر القرن التاسع عشر أرنست هيكل E.Haeckel (1834 - 1919) الفيلسوف وعالم البيولوجيا الألماني؛ فقد نحت المصطلح من الكلمة اليونانية Oikos.. التي تعني منزلاً، فأصبحت الكلمة تعني دراسة منزل الإنسان، ثم تحولت إلى علاقتنا بالبيئة بصفة عامة، وهكذا ظهر اهتمام بما في البيئة من خضرة يبلغ حد الهوس، وأصبحت الكائنات الموجودة في البيئة من نبات وحيوان..إلخ، من أهم قضايا الفلسفة المعاصرة خصوصاً انقراض بعض الحيوانات، واختفاء بعض النباتات، وكان الإنسان هو المتهم الأول في هذه القضية.

(8) المصطلح في هذه الحالة يعني التطرف والإفراط الشديد في محبة الإنسان,

(9) كتبت الآنسة "كارسون" كتابين آخرين عن البيئة؛ الأول "تحت رياح البحر" عام 1943، والثاني "حافة البحر" عام 1955.

(10) - Sartre, Jean Paul: **Critique de La Raison Dialectique: Theorie des Ensembles Protiques**, tome 1, Paris: Editions Galimad, 1985, p222.

وقد توفي سارتر عام 1980 قبل أن يصدر المجلد الثاني.

(11) - Critique de La Raison Dialectique, P.222.

(12) - Critique de La Raison Dialectique, P.223.

(13) - Critique de La Raison Dialectique, p.223.

(14)

(15) J.P.Sartre: Critique de La Raison Dialectique, P.234: وانظر أيضاً: كتاب ماري وأرنوك.

(16) - Warnock, Mary: **The Philosophy of Sartre**, London: Hutch Hutchinson University, 196.

(17) الواقع أن "نهاية التاريخ" ليست فكرة "فوكوياما" وإنما هي تأويل الفيلسوف الفرنسي الجنسية، الروسي الأصل ألكسندر كوجيف A.Kojeve (1902 - 1968) لفلسفة هيجل. وقد هرب من روسيا بعد الثورة إلى ألمانيا، ثم استقر في باريس وراح يلقي محاضراته عن "ظاهريات الروح" لـ (هيجل) عام 1933. وتركزت محاضراته بعد الحرب حول فكرة "نهاية التاريخ" وتفسير "جدل السيد والعبد" بصفة خاصة. وهذه المحاضرات هي التي نشرت بعد

ذلك بعنوان "مدخل لقراءة هيجل" في باريس عام 1947، وترجمت إلى الإنجليزية عام 1969.

(18) يذكر أفلاطون المصريين أكثر من مرة، ويشيد بالقانون عندهم. راجع مثلاً: محاورة القوانين، نهاية الفقرة 656 وبداية 657.

(19) زيمرمان، مايكل: "الفلسفة البيئية: من حقوق الحيوان إلى الإيكولوجيا الجذرية"، ترجمة: معين رومية، **عالم المعرفة**، بيروت: دار صادر، 332، أكتوبر 2006، ص203.